المَبْحَث الثَّالِث

خصائص التفسير في هذا القرن

من الضروري أن نعرف أبرز خصائص التفسير في العراق أبان القرن الأول ، ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا القرن شهد عهدين هما ، عهد الصحابة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ـ ، وعهد التابعين لهم ـ رَحمَهُم اللهُ ـ .

وسبب هذا التمييز : أن تفسير الصحابة ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ـ يعدّ أحد مصادر التفسير بعد الكتاب والسنة ، وفي هذا يقول ابن كثير : " إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة ، رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك ، لِمَا شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختُصوا بها ، ولِمَا لهم من الفهم التامَ ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ولاسيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة ، والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم "( [[1]](#footnote-0) ) .

لذلك كانوا الحكم والمرجع في الخلافات التي تحصل ، وأن غالب التابعين في هذا العهد ساروا على منوال الصحابة في تفسيرهم للقرآن الكريم .

وعلى العموم ، فأن أبرز خصائص تفسير القرآن في العراق في هذا العهد ، أجملها الدكتور الذهبي بما يأتي :

أولاً ـ لم يُفَسَّر القرآن جميعه ، وإنما فُسِّر بعض منه ، وهو ما غمض فهمه ، وهذا الغموض كان يزداد كلما بَعُد الناس عن عصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصحابة ، فكان التفسير يتزايد تبعاً لتزايد هذا الغموض ، إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها .

ثانياً ـ قِلَّة الاختلاف بينهم في فهم معانيه .

ثالثاً ـ كانوا كثيراً ما يكتفون بالمعنى الإجمالي ، ولا يُلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلاً ، فيكفى أن يفهموا من مثل قوله تعالى :  **وَفَاكِهَةً وَأَبّاً** ( [[2]](#footnote-1) ) أنه تعداد لِنعمَ الله تعالى على عباده.

رابعاً ـ الاقتصار على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ ، مثل قولهم :  **غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ** ( [[3]](#footnote-2) ) ، أي : غير متعرض لمعصية ، فإن زادوا على ذلك فمما عرفوه من أسباب النزول .

خامساً ـ ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله ، نظراً لاتحادهم في العقيدة ، ولأن الاختلاف المذهبي لم يقم إلا بعد عصر الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ .

سادساً ـ لم يُدَّون شيء من التفسير في هذا العصر ؛ لأن التدوين لم يكن إلا في القرآن الثاني ، نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير في مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التي نزل بها من عند الله تعالى .

سابعاً ـ اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث ، بل كان جزءاً منه وفرعاً من فروعه ، ولم يتخذ التفسير له شكلاً منظماً ، بل كانت هذه التفسيرات تُروى منثورة لآيات متفرقة ، كما كان الشأن في رواية الحديث( [[4]](#footnote-3) ) .

ثَامِناً ـ يمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأي ، وهذه ظاهرة نجدها بكثرة في مسائل الخلاف ، وإن ابن مسعود ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ هو الذي وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال ، ثم توارثها عنه علماء العراق ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الطريقة في مدرسة التفسير ، فيكثر التفسير بالرأي والاجتهاد ؛ لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية ، نتيجة من نتائج إعمال الرأي في فهم نصوص القرآن والسُّنَّة( [[5]](#footnote-4) ) .

وأبرز خصائص التفسير في عهد التابعين :

أولاً ـ تسرب كثير من الإسرائيليات إلى تفسير القرآن الكريم ، وذلك لكثرة مَن دخل من أهل الكتاب في الإسلام ، وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار ما لا يتصل بالأحكام الشرعية ، كأخبار بدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وبدء الكائنات ، وكثير من القصص ، وكانت النفوس ميَّالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية .

ثانياً ـ ظل التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية ، إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن في عصر النَّبِيّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم ـ وأصحابه ، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص ، فأهل كل مصر يعنون ـ بوجه خاص ـ بالتلقي والرواية عن إمام مصرهم ، فالعراقيون أكثروا من الرواية عن ابن مسعود ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ .

ثالثاً ـ ظهرت في عهد التابعين نواة الخلاف المذهبي ، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طيَّاتها هذه المذاهب فالحسن البصري قد فسَّر القرآن على إثبات القَدَر ، ويُكَفِّر مَن يُكذِّب به مثل قتادة بن دعامة الذي اتهم بأنه قدري .

رابعاً ـ كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ، وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسِّرين( [[6]](#footnote-5) ) .

خامساً ـ إن الحركة العلمية في العراق على العموم ، وحركة التفسير على وجه الخصوص ، تميزت من المدارس الأخرى زيادة على الإكثار من الرأي والاجتهاد ـ كما تقدم ـ بأن العراق كان أكثر البلاد الإسلامية ثروة علمية وأدبية ، وهذا راجع إلى جملة أسباب ، يمكن إيجازها بما يأتي :

1. كثرة الحضارات والأديان القديمة التي كانت قائمة في العراق ، وقد اصطبغت هذه الآراء بالصبغة الإسلامية بعد الفتح ، وتفاعلت مع التجربة الإسلامية تفاعلاً قوياً ، كان للتفسير نصيبه الكبير منه .
2. إن العراق بلد غني تتوافر فيه أسباب العيش الرغيد وفرص العمل مما أسهم في التأثير إيجاباً في الحركة العلمية ، إذ كان يجد العلماء والناس لديهم فسحة من الوقت تسمح لهم بالتفرغ للعلم وطلبه ، وكذا استقطاب العلماء والمتعلمين .
3. كثرة الفتن التي حصلت في العراق في هذا العهد ، إذ كان العراق ميداناً للتنازع بين كثير من الفرق بسبب أهميته الجغرافية والطبيعية والسياسية ، وهذه الصراعات أدت إلى ظهور التيارات الفكرية والسياسية مثل حركة الخوارج( [[7]](#footnote-6) ) .

هذه العوامل مجتمعة أدت إلى بروز مدرسة التفسير في العراق وتميزها ، وحملها لواء التفسير في القرن الثاني كما سيتبين لنا ذلك في الفصل الثاني إن شاء الله تعالى .

أما على صعيد التخصص في مدرستي البصرة والكوفة ، فأن مدرسة البصرة اتسمت الطريقة التي يعالجون بها العلم بعلامات معينة منها : الاهتمام بالتحليل والميل إلى الواقعية والتركيز على النقد( [[8]](#footnote-7) ) .

أما مدرسة الكوفة فاتخذت طريقة " التحفيظ والتسميع في القرآن الكريم خاصة " وهي الطريقة المقبولة التي لا يعتريها عيب مع كتاب الله لأنه لا يصح أن يعتمد التلميذ فيه على نفسه خشية الزلل ، وليس فيها كبت للقدرات والمواهب إذا ما اقتصرت على هذا الموضوع (موضوع التحفيظ والتسميع في القرآن الكريم خاصة) ، أما في غيره من العلوم فإنها تركت للتلميذ حريته في اختيار المادة والموضوع الذي يريد دراسته، ويتناسب مع مواهبه واستعداده مع التأكد من صدق اختياره وميوله ، ومع التوجيه والشرح والإلقاء من الأستاذ والسؤال والمراجعة والفهم الخاص من التلميذ ؛ فلم تترك للتلميذ مطلق الحرية في الاختيار والفهم ، ولم تسلبه استعداده بالكلية .

وتحقيقاً لهذا فإنهم لجؤوا إلى انتقاء التلاميذ حسب صلاحيتهم للعلم عامة ، ولفرع من الفروع بصفة خاصة وقد يرفض الأستاذ تلميذاً لعدم صلاحيته في مجال العلوم النظرية ويدلنا على هذا قول الحارث بن سويد " إن كان الرجل ليتبعنا إلى عبد الله بن مسعود – أستاذ مدرسة الكوفة الأول – فيما يقبله يرده "( [[9]](#footnote-8) ) لعدم صلاحيته للتلقي ولا يتم هذا على وجه الدقة إلا بخبرة الأستاذ وفراسته ، فمدرسة العراق ـ الكوفة والبصرة ـ طريقتها الإكثار من تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد( [[10]](#footnote-9) ) وذلك لأسباب ثلاثة :

الأول: تأثير سيدنا عبد الله بن مسعود ـ رَضِيَ اللهُ عَنْه ـ فيهم الذي يعتد بالرأي حيث لا نص .

الثاني: أن الحديث كان في العراق قليلاً وكان أكثر رواة الحديث في الحجاز ؛ لأنه موطن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكبار الصحابة

الثالث: أن العراق بلد متمدن تأثر إلى درجة كبيرة بالمدنية الفارسية واليونانية ( [[11]](#footnote-10) ) .

1. ( ) تَفْسِيْر الْقُرْآن العَظِيم : 1/16 . [↑](#footnote-ref-0)
2. ( ) سورة عبس : الآية 31 . [↑](#footnote-ref-1)
3. ( ) سورة المائدة : من الآية 3 . [↑](#footnote-ref-2)
4. ( ) يُنْظَرُ : التفسير والمفسرون : 1/ 97 ـ 98 . [↑](#footnote-ref-3)
5. ( ) يُنْظَرُ : التفسير والمفسرون : 1/ 118 . [↑](#footnote-ref-4)
6. ( ) يُنْظَرُ : التفسير والمفسرون : 1/ 130 ـ 131 . [↑](#footnote-ref-5)
7. ( ) يُنْظَرُ : فجر الإسلام : 182 ـ 183 . [↑](#footnote-ref-6)
8. ( ) يُنْظَرُ : التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ، لعبد الله يوسف الشاذلي ، دار الرياض ، السعودية ، بلا تاريخ : 1/79 . [↑](#footnote-ref-7)
9. ( ) الطَبَقَات الكُبْرَى : 6/167 . [↑](#footnote-ref-8)
10. ( ) يُنْظَرُ : التفسير والمفسرون : 1/118 . [↑](#footnote-ref-9)
11. ( ) يُنْظَرُ : فجر الإسلام : 382 ـ 384 . [↑](#footnote-ref-10)